مصرع البغي

للاستاذ محمد سعيد العريان

قال الشيخ لفتاه وهما يسلكان طريقهما في بعض أرباض الكوفة : مِلْ بنا يا بُنيَّ عن هذا الطريق ؛ فليس يطيب لي يوم إذا وقعت عيناي على أنقاض تلك القلعة المهدمة؛ كأنما يجثم وراء كل حجر من أحجارها المتناثرة نحسٌ يتربَّص بكل عابر سبيل ...

قال الفتى منكراً : وَيْ ! كأنك تزعم يا أبتِ أن لي بعض الجاد ما ينفع وما يضرّ ! . .

قال الشيخ وقد أخذ طريقاً آخر إلى الوجه الذي يقصده ، وقد أسند كفاً إلى كتف الفتى وكفاً إلى عصاه : إنما هو يا بنيَّ ما قلت ، وإنه لا نافع ولا ضار إلا الله ؛ وأعوذ به من كفر بعد إيمان ؛ ولكن ذكريات تتراءى لي من هذه الخربة كلما نالتها عيناي فتتجسد لي في النوم واليقظة صوراً حمراء دامية ؛ لقد عُمِّر أبوك طويلا يا فتى ورأى ما لم تره ؛ ولعلك أن تُعمَّر مثل عمري فتتحدث إلى بنيك بما رأيتَ وما سمعتَ من أنباء هذه القلعة المشئومة ! . .

استشرفت نفس الفتى إلى جديد يقصه عليه أبوه من أنباء الماضي، وإن أباه لراوية أخبار ومحدِّث تهفو النفوس إلى حديثه ويرهَف السمع ؛ ولكن الشيخ مما أوهى الزمان منه لم تكن به قوة على حديث طويل وهو يمشي ؛ فلما بلغ داره وتخفف من ثيابه جلس إلى وسادته ليستأنف حديثه إلى ولده عن تلك القلعة . قال :

لقد رأيتها يا بنيَّ منذ بضع وخمسين سنة ، وكنت يومئذ فتى في مثل سنك ، والمسلمون حديثو عهد بهذا المصر ، وأميرهم فيه سعد بن أبي وقاص ، فلما مصَّر البلد وشرع طرائقه ونظم ديوانه أمر أن تنشأ هذه القلعة واتخذها داراً للحكم ؛ وقد كان سعد مستجاب الدعاء يا بني ؛ وكأني به حين حفر أساسها قد دعا الله أن يجعلها عصمة للمسلمين من عدوهم ؛ ولو أنه اطلع على الغيب لكانت دعوته إلى الله أن يجعلها عصمة المسلمين من شر أنفسهم ؛ إذن لارتدت عنها شهوات المبطلين وعصمتْ أهل هذا المصر من أن يسفك بعضهم دماء بعض كما عصمتهم من عدوهم ؛ فما طرق الكوفة عدوٌّ من أهل الشرك منذ مصَّرها سعد وأنشأها بها هذا الحصن أو يسفك بها كافرٌ دماً ؛ ولكن اتخذوها مَطْمَعَةً يسفك بها بعضهم دماء بعض ... قال الشيخ :

في هذه القلعة يا بنيَّ ، شهدت رأس الحسين بعد أن قتله أهل البغي دون الفرات شهيداً مظلوماً وحالوا بينه وبين الماء ، لا يشرب من ظمأ ، ولا يجوزه إلى مأمن ، ولم يكفهم ما فعلوا به وبأهله وولده ، ففصلوا رأسه عن جسده وحملوه إلى عبيد الله بن زياد الدعي ، فكأنما أراه الساعة والرأس الشريف بين يديه المخضبتين بالدم لا يكاد يكتم فرحته بموته ؛ كأنْ قد ضمن به الخلود في الحياة حين ضمن به الخلود في إمارته !

ثم حمل الرأس إلى دمشق ليطيب يزيد بن معاوية نفساً بالنظر إليه ويطمئن بالا باستقرار الأمر له .

هل رأى قط واحد من أهل الكوفة أو من أهل هذه

عنهم من العلم ، وأنهم لم يكونوا أصحاب علم بالتوراة ، وأن ما أوردوه بثوب إسلامي لم يكن سوى أشباح ضعيفة لما ورد في بعض الأماكن من أسفار التوراة . وأنه كان في الواقع نوعاً من القصص الشعبي الإسرائيلي الذي كان شائعاً بين يهود اليمن والحجاز wolkslore وأنهم بيهوديتهم هذه يختلفون كثيراً عن يهود فلسطين مثلا أو العراق . وأنهم حاولوا إدخال «اليهوديات» في الإسلام وهو ما عرف فيما بعد باسم « الإسرائيليات » أو « القصص الاسرائيلية » [1] ، والتي حذر منها المفسرون . وأن بعضهم تآمر على الخلفاء ؛ بينما كان يتظاهر بخلاف ذلك .

جواد علي

(١) Fleischer-Festschrift Morgenlandi-sche forschungen Leipzig 1875 s 298 Lidzbarski De Prophetiis legendis Arabicis Leipzig 1893 s 39.

القلعة رأس الحسين فى الطست بين يدى عبيد الله ثم غابت هذه الصورة عن خياله ؟ ... قال الشيخ :

ومضت يا بنىّ منذ ذلك اليوم سنوات ، ومضى يزيد إلى ربه بما حمل من أوزار الناس وأوزار نفسه ، وتعاقب على عرش بنى أمية فى الشام أمير بعد أمير ، وظن عبيد الله ابن مرجانة أن العيش قد طاب له ، وأحسبه قد نسى يوماً له بقلعة الكوفة وبين يديه رأس الحسين الشهيد ، ولكن الأقدار لا تغفل عن أهل البغى ؛ ولم ينس المؤمنون من شيعة بنى هاشم جناية بنى أمية وبنى سُمية على عترة النبى المصطفى من خير خلقه ؛ فمضت الدعوة إلى الثأر لهم تنتقل من فم إلى فم وتتقاذفها الفلوات والأمصار حتى نهض لها المختار بن أبى عبيد يهتف فى شيعة الحق : بالثارات الحسين !

واجتمعت له الجموع وتكتبت الكتائب ودانت لدعوته البلدان ؛ وخرج ابن زياد ليلقاه ، أو ليلقى حينه ؛ فالتقى بجيش المختار فى أرض الموصل على شاطئ نهر خازر ؛ ونالته ضربة سيف بار فقدَّته نصفين ، فيداه فى المشرق ورأسه فى المغرب ، وكما حمل رأس الحسين من حيث قُتل على الفرات إلى قلعة الكوفة — حُمل رأس عبيد الله من حيث هلك على شاطئ نهر خازر إلى قلعة الكوفة كذلك ...

وفى هذه القلعة يا بنى ، شهدت للمرة الثانية رأساً فى طست بين يدى أمير القلعة ؛ وكأنى يومئذ بالمختار بن أبى عبيد إلى رأس ابن مرجانة بين يديه وهو فى مجلسه ذاك من تلك القلعة وعلى شفتيه مثل تلك الابتسامة ! ...

ولعل كثيرين غيرى قد رأوا ما رأيت يومئذ وفى ذلك اليوم الآخر ، فانطبعت فى أنفسهم صورة الرأسين ومنظر الأميرين ؛ فمنهم من نسى صورة بصورة ومنظراً بمنظر ؛ ولكننى لم أنس !

قال الشيخ :

ومضت يا بنىّ سنوات أخر ، وتقلبت الأحوال بالناس ما تقلبت ، وجدَّت أمور بعد أمور ؛ ولكن رجلا من أصحاب الأمر لم ينس أن له ثأراً عند المختار بن أبى عبيد ؛ ذلك مصعب ابن الزبير يا بنىّ ، أمير تلك الجهات من قِبل أخيه عبد الله المتآمر بمكة ؛ فقد كان يرى المختار دعياً فى شيعة علىّ ، يتلصق بهم ليطلب لنفسه ملكا وإمارة ؛ وقد سبقت له بيعة لعبد الله ابن الزبير فى مكة على أمل يأمله ، فلما خاب أمله ذاك زعم أنه شيعة على والثأر لولده ، ليصل بذلك إلى مناواة الأمويين والزبيريين جميعاً ؛ فهذا مصعب لحربه بالجيش اللجب ، تشايعه قبائل وبطون وجماعة من أهل الرأى وطائفة من أولى البأس فى الحرب ؛ والتقى الجيشان فى معارك ، ودارت الدائرة على المختار فلجأ إلى دار الإمارة بالكوفة معتصما فى طائفة قليلة من أصحابه لا قوة لهم على المقاومة ؛ وحصرهم جيش الزبيريين حتى لم يجدوا بداً من البروز لحربهم أو النجاة بأنفسهم ؛ ونالت المختار ضربة كانت فيها نفسه ، فاحتُز رأسه وحمل إلى الأمير مصعب بن الزبير فى قلعة الكوفة .

وكما شهدتُ من قبلُ رأس الحسين ورأس ابن مرجانة بين يدى أمير القلعة ، شهدت رأس المختار ...

وكأنما هجس بنفسى وقتئذ هاجسٌ وأنا أنظر إلى مصعب بن الزبير وبين يديه رأس المختار وتمثلتْ لى صورة غير التى تراها عيناى فى تلك الساعة ؛ فكأن الذى فى الطست ليس هو رأس المختار بن عبيد ، ولا رأس ابن مرجانة ، ولا رأس الحسين ؛ ولكنه رأس مصعب نفسه ؛ وكأن الأمير الجالس على الكرسى رجلٌ آخر غيره ، ولكنه رجل لا أعرفه ، لأن عينى لم تقع عليه قط .

هذا منظر تكرر على عينىّ ثلاث مرات ، فى صورة واحدة ، ومكان واحد ، ولأسباب تكاد تتشابه ؛ فكأنما رأيت منظراً رابعاً لم يره أحدٌ بعد ، وكأن هاتفاً من وراء الغيب يهتف بصوت أكاد أحكى نبره : لكلّ باغٍ يوم ! ...

واستقرت هذه الصور الأربع فى واعيتى لا أكاد أغفل عنها طرفة عين ؛ أما ثلاثٌ منها فرأيتها رأى العين ووعيتُها وعى اليقظة ؛ وأما الرابعة فكانت وهما تجسد حتى قارب أن يكون حقيقة مما يُدرك بالحس ! قال الشيخ :

لست أدرى يا بُنىّ أكانت هذه الصور الأربع فى واعيتى أنا وحدى أم كان غيرى يعيها ؛ ولكن الذى أروبه يقيناً هو أن رجلا واحداً من الذين شاركوا فى هذه الحوادث الدامية لم تخطر على باله قطُّ الصورةُ الرابعة ؛ ذلك هو مصعب بن الزبير نفسه !

وتوالت الأعوام يا بنى وهذه الصور تتراءى لى فى يقظتى وفى منامى ، حتى حرَّمتُ على نفسى أن أجوز ذلك الطريق حتى لا تقع عينى على تلك القلعة المشئومة فتجدُّ لى ذكريات وتبعث تلك الصورَ البغيضة إلى نفسى ...

وكان عبد الملك بن مروان على عرش بنى أمية فى الشام ، وقد تفانى أعداؤه ومناوئوه طائفة بعد طائفة وأهلك بعضهم بعضاً فلم يبق ثمة من يخشى خطره غير ابن الزبير ؛ فهيأ جيشاً سيره نحو العراق لحرب مصعب ؛ وانضم إليه فلول من أصحاب المختار ابن عبيد ، لا يحملهم على الحرب معه إلا الرغبة فى الثأر من قاتل صاحبهم ...

والتقى جيش الزبيرين وجيش بنى أمية فى مسكن ، على نهر الدجيل ، عند دير الجاثليق ؛ ونشبت المعركة ، فشد على مصعب رجل من أصحاب المختار وهو يقول : يالثارات المختار ! وطعنه فأبلغه أجله ...

واحتز رأس مصعب وحمل إلى عبد الملك بن مروان فى قلعة الكوفة ...

وشهدت الصورة الرابعة عياناً ، وكنت أراها رأى المتوهم منذ بضع سنين . ورأيت عبد الملك بن مروان جالساً على كرسيه وبين يديه الرأس فى الطست ...

وكان بين مصعب وعبد الملك مودة حين كانا فى المدينة قبل أن ينزغ بينهما الشيطان . . . وأحسبنى رأيت دمعة فى عين عبد الملك وهو يقول محزوناً وينظر إلى رأس مصعب : « متى تغذو قريش مثلك ! ؟ »

وغامت على عينى غائمة ، فقلت ولا أكاد أعى ما تلفظه شفتاى : « إنى رأيت بهذه القلعة رأس الحسين أمام عبيد الله بن زياد ، ورأس ابن زياد أمام المختار ، ورأس المختار أمام مصعب ، ورأس مصعب أمام أمير المؤمنين ! .. »

وبلغت كلماتى أذنَ الأمير ، فكأنما تطير مما سمع ، فأمر بنقض بنيان القلعة ؛ فهى من يومئذ أنقاض يابنى ! .

قال الفتى :

فما يفزعك منها يا أبتِ وقد صارت إلى ما ترى ؟ .

قال الشيخ .

— لست أدرى يا بنى ؛ ولكنى أتوقع كلما وقعت عيناى على أنقاضها أن أحداثاً ستحدث فى هذا المكان ، وتزدحم على ذكريات الماضى وصوره الحمراء الدامية ...

ثم صمت الشيخ وأطرق ، وسرحت خواطر الفتى إلى واد بعيد .

* * *

وتعاقبت السنون ، ومات الشيخ ، وأيفع الفتى ثم اكتهل ودبت فى فوديه شعرات بيض ؛ ونسى كل ما كان من حديث أبيه ؛ ونسى أهل الكوفة ما مر بهم من أحداث وما وقع فى القلعة من حوادث ؛ ولكن أنقاض القلعة ظلت مركومة حيث كانت ...

(ومر الفتى ذات يوم بالمكان فتذكر ، ووقع فى وهمه أن شيئاً ما سيحدث ...

(ومضت أيام ، وحدث شىء ...

من وراء أنقاض القلعة المهدمة بالكوفة بدأت طلائع الزحف العباسى إلى دمشق ، لتحطيم عرش بنى مروان ! !

وتنفس الفتى نفساً عميقاً حين بلغه النبأ ، وقال فى ثقة واطمئنان : آمنتُ بأن لكل باغ مصرعاً . . !

محمد سعيد العريان

هل قرأت قصة « الباحث عن السعادة » ؟

وهل عرفت ما كان من أمره وما هو كائن وما سيكون؟

اقرأ هذه القصة الرمزية بين ثنايا كتاب

نهـــاية الطريق

للأستاذ السيد الدالى

انها قصص شائقة ممتعة ويزيد فى سمو أفكارها أنها

مكتوبة بقلم بليغ — مجلة الكتاب

مايو ١٩٤٧

تطلب من دار التوزيع والطباعة والنشر ٥٣ شارع ابراهيم باشا ومن سائر المكتبات بمصر والشرق العربى

والثمن ١٥ قرشاً